

دولة الممالك البحرية

نشأتها وفضلها في

القضاء على الصليبيين

د. شفيق جاسر احمد محمود

كل دارس للتاريخ الإسلامي عبر عصوره المختلفة، يعلم أنه ما من زمن توحدت فيه قلوب المسلمين وبلادهم، واتخذوا النود عن الإسلام وبلاد الإسلام هدفا لهم، والجهاد في سبيل الله وسيلة لتحقيق هذا الهدف، إلا ومن الله عليهم بنصره، مهما بلغت قوة أعدائهم. ومن الأمثلة الرائعة على ذلك ما ابتلي به المسلمون في النصف الأول من القرن السابع الهجري (الثاني عشر الميلادي)، من تعرضهم لخطرین داهمين، هما: خطر الاجتياح المغولي

القادم من الشرق، والخطر القديم المتجدد، وأقصد به الخطر الصليبي، الذي انتعشت آمال قادته بما أصاب المسلمين من ضعف وفرقة في نهاية العصر الأيوبي، وبظهور الخطر المغولي المذكور. هبَّ الصليبيون لمهاجمة المسلمين فيما اعتقدوا أنه مقتلهم، فهاجموا مصر، قلب الإسلام ومنبع الجيوش الكبيرة التي مهدتهم دائماً. وهذه حقيقة أدركها أسلافهم فحاولوا مراراً دحر مصر أو تحييدها.

لهذا قرر لويس التاسع ملك فرنسا^(١) وقائد الحملة الصليبية السابعة المتعصب أن يقضي على مصر، وأن يتخذها طريقاً إلى بيت المقدس. ولكن الله خيب ظنه وقبض للمسلمين عصبه من الرجال الأشداء هم (المماليك)، الذين تولوا السلطة في مصر أولاً ثم امتد سلطانهم إلى الشام والحجاز وغيرها، فأقاموا دولة دامت قرابة ثلاثة قرون، تصدوا خلالها للمغول والصليبيين، وخلصوا المسلمين من شرهم

من هم المماليك؟

يطلق اسم (المماليك) اصطلاحاً على أولئك الرقيق - الأبيض غالباً - الذين درج حكام المسلمين على استحضارهم من أقطار مختلفة، وتربيتهم تربية خاصة، تجعل منهم محاربين أشداء.

وكلمة (مماليك) ^(٢): جمع مملوك، وهو الرقيق الأبيض الذي يباع ويشترى، وهي اسم مفعول من الفعل (ملك)، والمملوك هو عبد ماله، ولكنه يختلف

عن العبد الذي بمعنى الخادم^(٣)، كما أن كلمة (ممالك) تختلف أيضا عن كلمة (مولي)^(٤) التي مفردها مولى والتي تعني - اصطلاحا - عند المؤرخين: كل من أسلم من غير العرب، فالمولاي قد يكون أصل بعضهم من أسرى الحروب الذين استرقوا ثم أعتقوا، أو من أهل البلاد المفتوحة الذين انضموا إلى العرب فصاروا مولاي بالحلف والموالة.

والرق وأسبابه قديم قدم الإنسان، عرفته الأمم الغابرة من سكان ما بين النهرين، ووادي النيل، واليونان، والرومان، والعرب في الجزيرة العربية، واقتره معظم الديانات كاليهودية والنصرانية، أما الإسلام فإنه حض على الغائه وعلى تحرير الأرقاء وحسن معاملتهم، كما نظم العلاقة بينهم وبين ساداتهم^(٥).

وقد اقتنى كثير من الحكام المسلمين مثل هؤلاء المماليك، ولكن أعدادهم تكاثرت في أواخر عهد الأيوبيين في مصر والشام حيث ضعف شأنهم بعد وفاة صلاح الدين رحمه الله عام ٥٨٩هـ (١١٩٣م)، وانقسام الدولة بين أبناء الأسرة الأيوبية، الذين لقبوا أنفسهم بالملوك في كل من مصر، ودمشق، وحلب، والكرك، وبعليك، وحمص، وحماة. ونشبت بينهم حروب وخلافات متعددة، بالإضافة إلى ما نشب بينهم من جهة وبين أهل البلاد الآخرين وأبناء البيوتات في الشام من نزاعات مستمرة^(٦). مما اضطر كلا منهم للبحث عن عصبية تحميه وقت الشدة، وتساعده في صد أعدائه، فكان الإكثار من المماليك (الريقق الأبيض) خير وسيلة لتحقيق ذلك. وكان أشد الأيوبيين اهتماما بهم الملك الصالح نجم الدين أيوب ٦٣٧ - ٦٤٧هـ (١٢٤٠ - ١٢٥٠م) الذي بنى لهم المعسكرات في جزيرة الروضة سنة ٦٣٨هـ (١٢٤١م) وسماهم بالمماليك البحرية^(٧) الصالحية، وسكن معهم في القلعة، ورتب جماعة منهم حول دهليزه، واعتمد عليهم في صد غزوة لويس التاسع عن مصر.

مميزات المماليك:

امتاز هؤلاء المماليك بأنهم قد أعدوا إعدادا ممتازا ليكونوا جنودا وحكاما وسياسيين، يتولون الوظائف العليا في الدولة. ولشعورهم بهذا التفوق وشعورهم بغربتهم، فقد عاشوا كطائفة شبه منفصلة عمن حولهم من السكان، كما احتكروا الجندية وجعلوها أحيانا وقفا عليهم خصوصا على المماليك الصغار الذين كانوا يجلبون حديثا، حتى إنهم لم يسمحوا لأبنائهم بالانخراط فيها بل قصورهم على الوظائف الإدارية والكتابية.

وبرغم اختلاف أصولهم وانقسامهم حسب خشداشيائهم وسادتهم إلى أحزاب متطاحنة، فإنهم كانوا يجتمعون ويتماسكون لمواجهة الأخطار المشتركة. خاصة أمام العناصر العربية أو المغول أو الصليبيين.

وكانوا يحرصون على الظهور بالصلاح والتقوى، ويقومون ببناء العماثر الدينية من مساجد وتكايا ومدارس^(٨).

ولم يكونوا ليتخرجوا من الانتساب إلى مشريهم الأول أو أستاذهم مثل الصالحي، والمعزي، أو يلحقون بأسمائهم ما يدل على أثمانهم التي بيعوا بها مثل الألفي^(٩).

وكان المملوك شديد الوفاء لسيده أو أستاذه أو رابطته مع زملائه الذين تربوا لدى سيد واحد (الخشداشية)^(١٠).

تأسيس دولة المماليك البحرية

ب وفاة الملك الصالح أيوب، أثناء الحملة الصليبية السابعة على مصر، التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا، تولى السلطنة من بعده ابنه نور انشاه، وذلك بفضل حنكة زوجة أبيه شجر الدر^(١١)، ولكن نورا نشاه ل يلبث أن مات مقتولا من قبل مماليك أبيه بعد أن شهد هزيمة الصليبيين فخلفته زوجة أبيه المذكورة، وذلك في شهر صفر من عام ٦٤٨ هـ (١٢٥٠) في ذروة احتفال مصر بهزيمة لويس التاسع.

وقد عين المماليك أحدهم وهو عز الدين أيك الجاشنكير الصالحى المعروف بالتركمانى اتابكا للجنـد. ليساعد السلطنة الجديدة التي لم يدم حكمها سوى ثمانين يوم^(١٢)، وذلك أن احتجاج الناس على تولي امرأة للسلطنة، اضطر المماليك إلى تزويجها من الاتابك عز الدين المذكور، وإلى تنازلها عن السلطنة له.

بدأ عز الدين أيك عهده بالتخلص من منافسيه من المماليك، ثم استعان بالخليفة العباسي المستعصم بالله، حيث نصب نفسه نائبا له على مصر^(١٣)، وحاول الاستئثار بالحكم دون زوجته شجر الدر مما دفعها للتآمر عليه وقتله عام ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م).

وعندما علم مماليك المعزية بما فعلته شجر الدر، قاموا بقتلها بالتعاون مع ابن سيدهم المقتول علي بن معز الدين أيك الذي نصبوه سلطانا، ونصبوا الأمير قطز اتابكا له، ولكن قطز لم يلبث أن عزل السلطان الطفل وأعلن نفسه سلطانا وذلك في عام ٦٥٧ هـ (١٢٥٧ م) مستغلا في ذلك ظهور الخطر المغولي وشعور الناس بحاجتهم إلى سلطان قوي ليتمكن من صد هذا الخطر الداهم.

ولم يخيب قطز ظن المسلمين به فقد بادر بإعداد الجيوش، وتوجه مسرعا نحو الشام، والتقى بالجيوش المغولي في عين جالوت في رمضان من عام ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) وهزمهم هزيمة ساحقة وردهم عن الشام بعد أن كانوا قد استولوا على بغداد وأزالوا الخلافة العباسية ثم استولوا على معظم بلاد الشام وهددوا باجتياح مصر.

وفي طريق عودته إلى مصر، تأمر عليه خصومه من المماليك، بزعامة القائد بيبرس أحد أشهر قادته، فقتلوه وولوا عليهم بيبرس سلطانا^(١٤).

ويعتبر بيبرس من أعظم سلاطين المماليك لما قام به من أعمال وتنظيمات وعمران، وكان من أهم أعماله أحياؤه الخلافة العباسية في القاهرة سنة ٦٥٩هـ (١٢٦٠م) بعد أن قضى عليها التتار في بغداد. مما أكسبه سلطة شرعية مدعومة بموافقة الخليفة العباسي، كما استن نظام ولاية العهد في أسرته بتعيين ابنه السعيد بركة خان والعادل بدر الدين سلامش، الذي اغتصب قلاوون عرشه فيما بعد سنة ٦٧٩هـ^(١٥)، وحفر الترع، وأصلح الحصون، وأسس المعاهد، وبنى المساجد، وكان حاكما مستبدا مستنيرا، كما قوى الجيش واستحضر أعدادا كبيرة من المماليك، وكرس همته في محاربة الصليبيين. ولذلك يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة المملوكية في مصر، وذلك قبل أن يتوفى في السابع والعشرين من محرم عام ٦٧٦هـ (١٢٧٧م) في دمشق وهو عائد من وقعة قيسارية.

وتتابع سلاطين المماليك البحرية على الحكم حتى عام ٧٨٣هـ (١٣٨٢م)^(١٦) ثم خلفهم على الحكم سلاطين دولة المماليك البرجية ٧٨٤هـ ٩٢٣هـ (١٣٨٢ - ١٥١٧م)^(١٧)

جهاد المماليك البحرية ضد الصليبيين :

لم يبق من الأراضي الاسلامية تحت حكم الصليبيين سوى شريط ساحلي يمتد على محاذة البحر الأبيض المتوسط من ناحية الشرق ، يضيق أو يتسع باختلاف الظروف والأزمنة ، وذلك لأن الصليبيين حتى في عتفوان قوتهم ، لم يتمكنوا من التوغل في داخل بلاد الشام ، فبقيت حلب وحماة وحمص ودمشق بعيدة عن متناولهم^(١٨) . وبفقدتهم المبكر لإمارة الرها ظلوا محاطين بالمسلمين من الشمال والشرق والجنوب ، لا يربطهم بأوروبا ، مصدر قوتهم وأمارتي طرابلس وأنطاكيا ، ومدينة عكا التي أضحت مقرا للمملكة بيت المقدس بعد أن استرد المسلمون القدس .

لهذا فبعد أن باءت بالفشل حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر المسماة بالحملة السابعة ، خرج هذا الملك مذموما مدحورا خاسرا ، فاشلا في تحقيق أحلامه في استرداد بيت المقدس عن طريق مصر ، وغادر دمياط متوجها نحو قبرص ، بعد أن فك المماليك أسرهم ، مقابل فدية كبيرة وشروط مذلة .

ثم لم يلبث أن غادر قبرص متوجها نحو عكا ، التي كان حاكمها يوحنا ، شقيق ماري ، إمبراطورة القسطنطينية ، وزوجة الإمبراطور يلدويك الثاني ، ومنها أخذ يعمل على تحقيق حلمه الذي لم يفارقه رغم كل النكبات ، بل عاش معه حتى مات في تونس وهو يقود الحملة الصليبية الثامنة .

استغل هذا الملك فرصة النزاع الذي شب بين المماليك البحرية الذين استولوا على السلطة في مصر ، بعد مقتل تورانشاه بن الملك الصالح أيوب وبين بقايا الأيوبيين في الشام الذين رأوا في ذلك ضياعا لجزء هام من أملاك الأسرة الأيوبية ، فعارضوا ذلك بشدة وعلى رأسهم السلطان الناصر يوسف صاحب حلب

ودمشق، فصار الملك لويس يساوم كلا الجانبين - الأيوبيين والمماليك - ويعدهما بالمساعدة حتى اتفق أخيرا مع السلطان معز الدين أيبك على أن يطلق المماليك عددا كبيرا من الأسرى الصليبيين، وعلى إعادة رؤوس الفرنجة المعلقة حول أسوار القاهرة منذ وقعة غزة، وأن يتنازل المماليك عن النصف الثاني من الفدية المفروضة على لويس التاسع، وتعهدوا بإعادة بيت المقدس إلى الصليبيين، وذلك كله مقابل أن يقف الملك لويس إلى جانبهم في حربهم ضد الناصر يوسف صاحب الشام واتفق على « أن تكون هذه الاتفاقية خمسة عشر عاما »^(٢١٤).

هذا ولم تشر المصادر الإسلامية إلى هذه الاتفاقية غير ما أورده العيني عندما قال: « ومال الجيش المصري بالفرنج، ووعدوهم أن يسلموا إليهم بيت المقدس - إن نصروهم على الشاميين - وكانت قد اشتدت الحرب بينهم »^(٢١٥) ورغم شعور الإنسان بالأسى والأسف لهذه المعاهدة، إلا أن من يعرف المماليك يوقن أنهم لم يكونوا معنيين بتنفيذ بعض بنودها، وخصوصا ما يتعلق منها بإعادة القدس إلى الصليبيين، أو تسليمهم ما هو غرب نهر الأردن، وأنهم كانوا يرون فيها خدعة تكتيكية لكسب الصليبيين إلى جانبهم أو إيقاعهم على الحياذ، فباشروا أولا في تنفيذ بعض البنود كدليل على مصداقيتهم، فأخلوا سبيل باقي أسرى الإفرنج، وتنازلوا عن بقية الفدية المتبقية والبالغة حوالي ربع مليون جنيه ذهبي مصري، وأعادوا رؤوس قتل الفرنج التي كانت معلقة على أسوار القاهرة منذ واقعة غزة^(٢١٦).

وعليه توجه لويس التاسع من جانبه بقواته من قيسارية إلى يافا، وانتظر وصول المماليك للانضمام إليه لمحاربة الناصر يوسف، ولكن الملك الناصر

يوسف أرسل جيشا رابط في غزة ليحول دون اجتماع جيوش الصليبيين والمماليك^(٢٢)، مما أفسد عليهم خططهم ، وأخيرا تدخل الخليفة العباسي المستعصم بالله فسارع إلى التوسط بين الأيوبيين والمماليك فجنب بذلك القدس من السقوط مرة أخرى بأيدي الصليبيين^(٢٣)، كما جنب المسلمين سفك دماء بعضهم خصوصا وأن الخطر المغولي قد أصبح على الأبواب .

ومع ذلك فإن لويس التاسع لم يفقد الأمل ، فاستغل فترة خلاف المسلمين هذه لإصلاح أحوال الصليبيين ، وتحصين مدنها وحصونهم^(٢٤)، فبدأ بتحسين مدينة عكا ، باعتبارها عاصمة الصليبيين ، ومقر إقامته ، ومركز مملكة بيت المقدس ، وأتم تحصينها عام ٦٤٩هـ (١٢٥١م) حتى أصبحت بمنتهى المنعة .

وبعد ذلك توجه لويس إلى قيسارية^(٢٥) التي كان يحكمها يوحنا اليان ، فأمضى عاما في بناء سورها ، وأقام أبراجا عدة ، كما حصن مدينة حيفا^(٢٦) وبعدها سار إلى يافا^(٢٧) وأقام حولها سورا له ثلاثة أبواب وأربعة وعشرون برجاً وخذل قان .

كما حصن صيدا^(٢٨) وجدد بناء ما هدمته قوات الناصر يوسف عندما أغارت عليها أثناء مهاجمة لويس التاسع لدمياط ، وأحاطها بالأسوار والأبراج والخنادق^(٢٩) . وذلك في زمن أميرها جوليان دي باليان .

ومن جهة أخرى حاول الملك لويس التاسع جمع كلمة الصليبيين الذين فرقهم الخلافات والحروب المحلية ، سواء كانت أسبابها تجارية كالتي كانت تحدث بين البنادقة والبيزانة والجنوية الذين تعرضوا بالمضايقة للويس التاسع نفسه ، لاعتقادهم بأن حملته على مصر أضرت بعلاقتهم معها ، أو دينية كالتي وقعت بين الجماعات الرهبانية العسكرية من داوية واسبتارية ، أو عرقية بين

أجناس السكان المختلفة لأن سكان الإمارات الصليبية كانوا خليطا متنافرا من الأمم والأخلاق والأهداف والميول .

كما حاول توطيد علاقاته مع نصارى الشرق (السريان المسيحيين)^(٣٠) خصوصا الأرمن والموارنة^(٣١) حيث كان للموارنة وضع خاص لدى الصليبيين منذ بداية الحروب الصليبية لأنهم لعبوا دور الحلفاء للصليبيين، مما جعل الصليبيين يأمنون إليهم، ويدخلونهم تحت حمايتهم^(٣٢) ولم ينسوا أنهم شاركوهم مرات عديدة في محاربة المسلمين، أهمها مشاركتهم في حملة لويس التاسع على مصر حيث قاتلوا إلى جانبهم في المتصورة^(٣٣).

وفي نفس الوقت حاول لويس التاسع اصلاح الفساد المستشري في الإمارات الصليبية حيث كانت مرتعا للشُرور التي وصفها القاصد الرسولي في حديث له إلى جونفيل يبين فيه مقدار الفساد في عكا «لا يعلم أحد مثلي الأثام والمعاصي التي ارتكبت في عكا، ولذا فإن المولى سيتنقم من سكانها حتى تغسل المدينة بدمائهم، وحينئذ سوف يأتي شعب آخر للإقامة فيها»^(٣٤) وقد ساعد على هذا الفساد الأخلاقي كون الصليبيين خليطا متنافرا من الناس كما سبق وذكرنا .

وكل هذه الأعمال التي قام بها لويس التاسع أخرت سقوط الإمارات الصليبية مدة ليست قليلة، وإن كانت لم تلبث الخلافات أن دبت بعيد مغادرة لويس للشام عائدا إلى بلاده التي دبت فيها الفوضى - وليقود بعد فترة طويلة الحملة الصليبية الثامنة إلى تونس حيث توفي في بدايتها عام ٦٦٩هـ (١٢٧١م) خصوصا بين الجماعات اللاتينية وذلك عام ١٢٥٨م ودامت مدة ستين عاما مما أضعف هذه الإمارات وسهل سقوطها .

دور بيبرس في التصدي للصليبيين:

لم ينس بيبرس لحظة عداوة الصليبيين وخطرهم على الشام ومصر، وهو الذي شارك في صددهم عن المنصورة ودمياط، ورأى محاولات لويس التاسع في تأجيج الصراع بين دولة الممالك الحديثة النشأة، والمملك الناصر ملك دمشق، ثم تعاونهم مع الخطر الجديد القادم من الشرق، حيث رأوا فيه حليفا طبيعيا ساقه الله لنصرتهم، ألا وهو خطر المغول، فاتصلوا بهم، وعملوا أدلاء لجيوشهم وجواسيس يطلعونهم على عورات المسلمين، بل إن بعضهم قد سمحوا لبعض الحاميات المغولية بالنزول في حصونهم، فوقعوا هم أنفسهم تحت سيطرة ورحمة تلك الجماعات^(٣٥). وكذلك تأمر الصليبيين الدائم مع الحشيشيين الذين كانوا خطرا دائما يهدد كل مجاهد مسلم من زعماء المسلمين.

لهذا قرر بيبرس كما قلده في ذلك خلفاؤه أمثال قلاوون والأشرف خليل، أجتثاث الخطر الصليبي نهائيا من بلاد الشام^(٣٦).

وكتمهيد لتحقيق هذا الهدف تحالف بيبرس مع الإمبراطور البيزنطي باليولوجس عدو الصليبيين، حيث عقد معه معاهدة دفاعية عام ٦٦٠ هـ (١٢٦٢م)^(٣٧) كما حالف مغول القفجاق (القبيلة الذهبية) وأعداء المسلمين مغول فارس الوثنيين^(٣٨).

وبعد كل هذه الترتيبات توجه بيبرس نحو الشام عام ٦٦٣ هـ (١٢٦٥م) قاصدا إعداد قواته وإعادة توزيعها، تمهيدا لتنفيذ غرضه، وعند ذلك أحس الصليبيون بالخطر الكامن في استعدادات بيبرس ونيتة نحوهم، فأرسلوا إليه وفودهم تعرض عليه المسألة، وتعبّر عن حسن نيتها نحوه، ولكنه كان يردّها

قائلا: «ردوا ما أخذتموه من البلاد، وفكوا أسرى المسلمين جميعهم، فلاني لا أقبل غير ذلك» ثم يطردهم من حضرته^(٣٩).

وكان من حماس بيبرس في جهاد الصليبيين، أنه لم يخل عام من الأعوام العشرة ما بين ٦٥٩ - ٦٦٩ هـ (١٢٦١ - ١٢٧١ م) إلا وكان يشن فيه حربا، ويسترد أرضا من أرض إحدى الإمارات الباقية بأيديهم وهي: أنطاكية، وطرابلس، وبعض مملكة القدس.

فبادر عام ٦٦١ هـ (١٢٦٣ م) بمهاجمة مدينة الناصرة، ثم هاجم بنفسه مدينة عكا الحصينة، ولكنه لم يتمكن من فتحها بسبب ما أقامه فيها لويس التاسع من تحصينات^(٤٠).

وفي عام ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) حاصر مدينة قياراية وفتحها رغم حصانتها، ثم غادرها جنوبا إلى قلعة أرسوف البحرية^(٤١) التي كانت تحت سيطرة فرسان الاسبتارية المشهورين ببسالتهن، فقاموا بالدفاع المستميت عنها، ولم يمكنوا بيبرس من فتحها فلجأ إلى الحيلة بأن اتفق معهم على أن يستسلموا مقابل تأمين حياتهم، ولكنه قام بنقلهم إلى القاهرة بعد أن أمرهم بهدم قلعتهم^(٤٢).

وبعد ذلك قام بفتح يافا وعتليت، ثم استولى في العام التالي على صفد^(٤٣) وهونين وتبين^(٤٤)، والرملة^(٤٥) مما جعل الإمارات الصليبية في حالة احتضار يائسة دفعتها إلى معاودة استعطاف السلطان بيبرس طالبة مصالحته، أو على الأقل عقد هدنة معه، وفي هذه المرة رأى أن من المناسب إجابة طلبهم، فصالحهم على أساس المناصفة أو المشاركة وذلك بأن يصبح له حصّة في غلاتهم ومنتجاتهم^(٤٦). ومن أطرف هذه الاتفاقيات بين بيبرس والإمارات الصليبية تلك

الاتفاقية التي عقدتها معه ازايليا ملكة بيروت عام ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) ومدتها عشر سنوات، فقد ذكر القلقشندي^(٤٧) أن هذه الملكة قد وثقت ببيرس إلى درجة أنها كانت عندما ترغب في السفر إلى جهة ما، تذهب بنفسها إلى ببيرس وتستودعه بلادها، وعندما خطفها الملك هيو الثالث ملك جزيرة قبرص، قام ببيرس بتخليصها عن طريق توجيه تهديدات لهيو، لهذا اتخذت لنفسها حرساً من المماليك حتى مات عام ٦٧٢هـ (١٢٧٤م)، وقلدتها في هذه السياسة اختها وخليفتها حتى استولى المسلمون على بيروت^(٤٨).

أما عن موقف السلطان الظاهر ببيرس تجاه العدو الآخر والحليف الدائم لكل من الصليبيين والمغول وأعني به مملكة أرمينيا الصغرى^(٤٩) فقد وجه إليها في عام ٦٦٥هـ (١٢٦٦م) قلاوون. بقصد تأديب ملكها على تحالفه مع التتار زمن هولاكو وأبقاخان، وتشجيعه لها على مهاجمة الشام ومصر، والمساهمة في دعمها بفرض حصار اقتصادي على دولة المماليك، حيث منع عنها مادي الخشب والحديد^(٥٠). وقامت قوات قلاوون بهزيمة الأرمن قرب دراساك، ودمرت مدن سيس وأطنه وطرسوس والمصيصة وألحقت بها دماراً هائلاً في هجومها الذي استغرق عشرين يوماً فقط. وقتل قلاوون أحد أبناء ملك أرمينيا وأسر الابن الثاني، في حين كان الملك نفسه - هيثوم الأول - في زيارة للمغول في بلاد فارس. ولم يوافق ببيرس على إطلاق أسيره إلا مقابل تنازل والده عن عدة مواقع استراتيجية ودفع جزية سنوية^(٥١).

ومنذ ذلك الحين أصبحت أرمينية الصغرى ضعيفة لم تسبب للمسلمين أية مشكلة، إلا مرة واحدة في عهد السلطان محمد قلاوون حيث أخضعها نهائياً^(٥٢).

سقوط أنطاكية بيد السلطان بيبرس :

وجه بيبرس همه إلى أنطاكية أقوى الإمارات الصليبية المتبقية والمتحالفة مع التتار، فبدأ بمهاجمة البلاد المحيطة بها، حيث استولى على عدة قلاع تقع إلى الشمال منها^(٥٣) ثم وجه همه نحوها بجيشه المؤلف من ثلاث فرق، استولت الفرقة الأولى منها على ميناء السويدية، لتقطع اتصال أنطاكية بالبحر، ورابطت الفرقة الثانية في عمرات قيليقية لمنع وصول الإمدادات من أرمينية الصغرى، ثم هاجم المدينة بالفرقة الثالثة، واستمرت الهجمات، ودام الحصار ثم جرت مفاوضات لتسليمها صلحا، ولكن أهلها رفضوا ذلك، فاستطاع أن يفتحها عنوة، في رمضان عام ٦٦٦هـ (١٢٦٨م) فأحرقها^(٥٤)، وقتل من أهلها خلقا كثيرا^(٥٥)، وأسر أعدادا هائلة منهم، و غنم مالا يحصى من الأموال بلغ من كثرتها (أن قسمت الأموال بالطاسات) وبلغ الأسرى من الكثرة حتى أنه (لم يبق غلام إلا وله غلام، وبيع الصغير باثني عشر درهم)^(٥٦). فكان سقوطها معلما خطيرا على طريق نهاية الصليبيين بالشام لأنها كانت بحكم موقعها الجغرافي سندا لهم منذ بداية الحروب الصليبية، وسبب سقوطها ذعرا شديدا في صفوف الصليبيين، حتى أرسل ملك أرمينية الصغرى يعرض على بيبرس أن يسلمه بلاده مقابل الاستمرار في مهادنته^(٥٧).

ولم يكتف بيبرس بهذا النصر العظيم، فوجه همه نحو جزيرة قبرص ليؤدب ملكها هيو الثالث، الذي كان دائم التهديد للسفن الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط، ودائم المساعدة للصليبيين، فوجه نحوه حملة بحرية عام ٦٦٨هـ (١٢٧٠م)^(٥٨)، ولكنها فشلت بسبب العواصف التي حطمت معظم سفنه^(٥٩) فنجأ بذلك ملكها من عقاب بيبرس.

لم يثن هذا الفشل بيبرس عن مواصلة الجهاد ضد الصليبيين، فاستولى في عام ٦٦٩ (١٢٧٠م) على صافيتا وحصن الأكراد، وحصن عكار، والقرين، ثم واصل مهاجمة إمارة طرابلس، فاستولى على ما حولها من حصون وممرات وكاد أن يفتحها، ولكنه عندما علم بخروج الحملة الصليبية الثامنة من فرنسا خشي أن تكون وجهتها مصر، فسارع إليها للاستعداد لمواجهة هذا الخطر^(٦١)، وعندما تبقن من وجهة تلك الحملة إلى تونس عاد (١٢٧١م) لمواصلة هجومه على طرابلس فطلب أميرها بوهيمند السادس الصلح، ووصلت الأخبار بوصول الأمير أدوارد^(٦٢) الأول إلى عكا، فظن أنها مقدمة لحملة صليبية كبرى فاستجاب بيبرس لطلب بوهيمند، وعقد معه صلحا مدته عشر سنوات^(٦٣). وتبعتهما مملكة بيت المقدس فعقدت صلحا مماثلا، مما مكن بيبرس من التفرغ لقتال المغول والإسماعيلية، فوجه همه نحو الإسماعيلية الذين كانوا يعادون المسلمين ويتآمرون مع الصليبيين ضدهم، ويقتالون كبار المجاهدين من قادتهم كما تعاونوا مع المغول، ودفعوا لهم الأتاوات^(٦٤)، فعزل مقدمهم نجم الدين الشعرازي وهدم حصونهم وقضى عليهم، وكانوا يسمون بالحشاشين^(٦٥).

جهاد السلطان الناصر قلاوون ضد الصليبيين:

لم يكد السلطان قلاوون يعتلي عرش مصر، حتى تمرد عليه نائب الشام، الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، فأعلن نفسه ملكا باسم الملك الكامل، واستولى على عدة حصون من حصون الشام، منها قلعة صهيون، ثم اتصل بأعداء المسلمين من مغول وصليبيين^(٦٦) محاولاً الاستعانة بهم ضد قلاوون، مما جعل أهل الشام ينفرون منه، وينفضون من حوله، ويتخلون عن نصرته،

واستغل المغول هذه الفرصة، فاحتلوا بعض حصون الشام ٧٦٩هـ (١٢٨٠م)، واستولوا بقيادة أبغا على مدينة حلب، التي أحرقوا مساجدها ومدارسها وقتلوا معظم أهلها^(٦٦). ولم يضع الصليبيون هذه الفرصة، فقاموا بمحاولة لاسترداد حصن الأكراد، ولكنهم فشلوا^(٦٧). وعندما علم قلاوون بهذا التحالف وهذه الجرائم خرج من مصر متوجها نحو الشام للقضاء على هذا الخطر، ولكنه لم يكد يغادر أرض مصر، حتى تعرض لمؤامرة داخلية جاءت من قبل بعض المماليك الذين يدعون بالملك الظاهرية^(٦٨). حيث تأمرؤا عليه بالاتفاق سرا مع الصليبيين. فواجه الموقف بسرعة وقبض عليهم فأعدم بعضهم وسجن البعض الآخر وأعاد النظام إلى صفوف جيشه^(٦٩).

فر المغول عندما علموا بوصول جيش الناصر قلاوون إلى غزة في طريقه لمحاربتهم^(٧٠)، فأخلوا مدينة حلب والحصون التي كانت قد احتلوا وأسرعوا عائدين نحو العراق ولم يصمد الأمير سنقر بدوره أمام جيش قلاوون وفر هاربا إلى المغول محاولا مرة أخرى حثهم على غزو مصر^(٧١).

عندئذ رأى السلطان قلاوون أن أخطر هؤلاء الأطراف الثلاثة المتآمرين هم المغول، فعقد صلحا مع الصليبيين من داوية واستبارية وبومند السابع أمير طرابلس مدته عشر سنوات، وذلك عام ٦٨٠هـ (١٢٨١م) وعفا عن الأمير سنقر الأشقر وعينه حاكما على إقليم أنطاكية^(٧٢)، واتفق مع الصليبيين من عكا أن يكونوا على الحياد.

وبهذا تفرغ لمقارعة المغول الذين عاودوا التوجه نحو الشام بقيادة أبغا، يؤازرهم حليفهم ليوم الثالث ملك أرمينيا الصغرى، فالتقى بهم قلاوون عام ٦٨٠هـ (١٢٨١م) في حمص وهزمهم بعد أن هلك منهم خلق كثير^(٧٣).

وهنا قرر الناصر أن يتقم من الصليبيين مستغلاً نصره على المغول فهاجم عام ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) حصن المرقب^(٧٤)، ولما يمض على صلحه معهم سوى أربع سنوات، ففتح ذلك الحصن الهام الذي كان فتحه خسارة كبرى للصليبيين لأنه من أهم حصونهم^(٧٥) ثم أتبع ذلك بالاستيلاء على اللاذقية عام ٦٨٦هـ (١٢٨٧م) والتي كانت آخر أملاك إمارة أنطاكية المتبقية بين الصليبيين.

بعد ذلك جاء دور طرابلس، وكانت حصينة، وقد مات أميرها بوهيمند السابع دون وريث، قرب النزاع بين الطامعين في إمارتها، حتى استعان بعضهم بالسلطان قلاوون^(٧٦)، فاستغل هذه الفرصة وهاجمها في جيش لجب يضم أربعين ألفاً من الفرسان وأكثر من مائة ألف من الرجال، وفتحها سنة ٦٨٨هـ (١٢٨٩م)^(٧٧). ثم استولى على بيروت وجبله وبهذا لم يبق بيد الصليبيين سوى صور وصيدا وعنتلي وعكا التي كانت مركز مملكة بيت المقدس بعد سقوط القدس.

ورأى قلاوون أن يؤجل إلى حين الاستيلاء على بقية البلاد من أيدي الصليبيين، فوافق على تجديد الهدنة معهم لمدة عشر سنوات^(٧٨) وتوجه إلى دمشق ولكن جموعاً صليبية متحمسة وصلت من إيطاليا ٨٦٩هـ (١٢٩٠م) ونزلت في عكا، وأخذت في الاعتداء على المسلمين المتواجدين خارجها، مما أغضب السلطان قلاوون ودفعه لأن يقسم على الانتقام منهم، وأخذ في الاستعداد لهذا الغرض، ولكنه توفي فجأة وهو في الطريق لتحقيقه^(٧٩) عام ٦٨٩هـ (١٢٩٠م).

وقد وصف ابن العمري قلاوون رحمه الله بقوله: «كان رجلاً مهيباً شجاعاً، فتح الفتوحات الجليلية، مثل المرقب وطرابلس، التي لم يجسر أحد من الملوك

مثل صلاح الدين وغيره على التعرض لها لخصائنها، وكسر جيش التتار في حمص، وكانوا في ثمانين ألفاً^(٨٠).

وقد خلف الأشرف خليل بن قلاوون أباه في السلطنة، لأن أخاه الملك الصالح علي بن قلاوون الذي أقامه أبوه ملكاً في حياته قد مات في سنة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨ م) بعد أن بقي ثمان سنوات سلطاناً في حياة أبيه.

ولم يكن الأشرف خليل محبوباً من الأمراء، لأنه كان قاسياً وغير متمسك بحسن الخلق^(٨١)، حتى اتهم بدس السم لأخيه علي، وقد استلم الحكم فور وفاة أبيه، وقضى على الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة الذي تآمر عليه، ثم استعد للخروج إلى الشام، ورغم محاولة الصليبيين ثنيه على ذلك بأن أرسلوا إليه (يسألونه العفو) فإنه (لم يقبل منهم ما اعتذروا به)^(٨٢)

فتوجه نحو عكا، واجتمعت إليه جيوش مصر والشام سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م)، فقام بمحاصرتها مدة أربعة وأربعين يوماً، ورماها بالمنجنق، حتى فتحها في جمادى الأولى من عام ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م)، رغم المقاومة العنيدة التي أبدتها حاميتها، ورغم إمدادات قبرص لها^(٨٣)، حيث إن الصليبيين كانوا يعلمون أنها آخر أمل لهم في البقاء في الشام، وقد فر بعض سكانها إلى عرض البحر المتوسط وتكدسوا في السفن التي غرق بعضها لكثرة من كانوا على ظهرها^(٨٤).

وبعد ذلك قام الأشرف خليل بالاستيلاء بسهولة على بقية ما تبقى بأيدي الصليبيين مثل صور وحيفا اللتين قاومتا مقاومة كبيرة، ثم اضطرتا للتسليم فنجتا بذلك من التخريب^(٨٥)، ثم استولى الأشرف خليل على عتليت وصيدا وانطرسوس^(٨٦)، وبهذا تم القضاء نهائياً على الوجود الصليبي في الشام، وإن

كان الصليبيون في جزيرة ارواد^(٨٧) المواجهة للساحل الشرقي قد ظلوا يغيرون على السواحل بين الفينة والأخرى ويقطعون الطرق، مما أزعج نائب السلطنة المملوكية على الشام، وجعله يطلب معونة السلطان الناصر محمد قلاوون، فجهز أسطولاً ووجهه نحو هذه الجزيرة بعد أن ضم إليه جيش طرابلس ففتحها وملكها وقتل من أهلها خمسمائة^(٨٨) وذلك عام ٧٠٢هـ (١٣٠٢م).

وهكذا بالقضاء على الصليبيين في عام ٦٩٠هـ (١٢٩١) وبزوال الخطر المغولي عن الشام ومصر، في عهد أبي سعيد ايلخان المغول عام ٧١٧هـ (١٣١٧م)، أصبح لدولة المماليك شأن عظيم في السياسة الدولية في ذلك الزمن، وذلك في عهد سلطانها الناصر محمد بن قلاوون في سلطته الثالثة.

فقد أدرك الصليبيون في أوروبا فشل محاولاتهم المتلاحقة للعدوان على بلاد الإسلام في الشام ومصر، ورأوا زوال آخر إماراتهم بعد قرنين من تأسيسها، رغم ما بذل في سبيل إقامتها من جهود مادية ومعنوية، وما سفك في سبيلها من دماء، كما لمسوا فتور الحماس الصليبي، بعد فشل حملتي لويس التاسع السابعة والثامنة على مصر وتونس، لذلك اضطروا إلى تقبيل اليد التي حاولوا قطعها، فلعجؤوا إلى الدبلوماسية والمراسلات والسفراء والهدايا، عليهم يحققون عن طريقها ما فشلوا في تحقيقه بالتعصب والسيوف.

انهال سفراء الدول الأوروبية على بلاط الملك الناصر محمد بن قلاوون في القاهرة، محملين بالهدايا والرسائل التي تلح في طلب الصداقة والمواطنة، وتوثيق عرى الصداقة، في حين كان غرضها الأساسي هو استدراج عطف الناصر على النصارى في دولته، سواء من كان منهم من الأقباط في مصر أو من أهل الشام، فأرسل البابا يوحنا الثاني والعشرون في عام ٧٢٧هـ (١٣٢٦م) رسالة إلى

الناصر طالبا منه أن يعامل نصارى الشرق معاملة عادلة، مقابل معاملة مماثلة للمسلمين، فرد عليه الناصر مجيبا طلبه^(٨٩).

وفي نفس السنة أرسل شارل الرابع ملك فرنسا رسالة مماثلة لنفس الغرض، فرد عليه الناصر أيضا مجيبا طلبه^(٩٠)، كما أرسل إليه إمبراطور بيزنطة سفراء محملين بالهدايا راجيا إياه معاملة النصارى الملكانيين لديه بالرعاية والعدل^(٩١)، فقبل الناصر طلبه، وعقد معه حلفا لصد الأتراك العثمانيين^(٩٢).

وبلغت العلاقات بين الناصر ويعقوب ملك أرغونة شأوا كبيرا بسبب المراسلات بينهما ما بين سنتي ٧٠٣ - ٧٢٨ هـ (١٣٠٣ - ١٣٢٧ م)، التي كان هدفها إيجاد علاقة صداقة بينهما، والحصول على ميزات تجارية لأرغونة في مصر، وتسهيل الحج للأراضي المقدسة، وإطلاق سراح النصارى المسجونين في مصر، وضمان حسن معاملة الأقباط والنصارى عامة في الشرق^(٩٣).

وقد رأى الناصر محمد الذي كان ملكا مستنيرا محنكا، يميل إلى المسالمة، رأى في ذلك فرصة لتوثيق العلاقات بين دولته والآخرين في الشرق والغرب^(٩٤)، تحقق بها مصالح مشتركة وخاصة حماية المسلمين في أسبانيا التي كانت خاضعة لحاكم أرغونة، بالإضافة إلى المصالح التجارية والعسكرية في الوقوف أمام الخطر التركي العثماني.

ولا أدل على أهمية دولة المماليك الإسلامية في

هذا العصر من أن يصبح سلاطينها محط أنظار السفراء

والرسل من مغول ويمنيين وأرمن ونوبيين، حتى

وصفهم المقرئزي بقوله^(٩٥): وفيه (٢٥ محرم ٧٢٥ هـ)

اجتمع بمصر من رسل الملوك ما لم يجتمع منهم في الدولة

التركية، وهم رسل اليمن ورسل صاحب اسطنبول
ورسل الأشكري^(٩٦) ورسل متملك سيس، ورسل أبي
سميد (ملك التار)، ورسل ماردين، ورسل ابن
قرمان، ورسل متملك النوبة، وكلهم يبذلون الطاعة.
إلا أن هذه المكانة قد ضعفت بموت السلطان الناصر
محمد فسيحان مغير الأحوال^(٩٧).

المصادر والمراجع

- (١) ابن إياس، ٩٣٠هـ (١٥٢٣م) محمد بن أحمد الحنفى: بدائع الزهور في وقائع الدهور (كتاب تاريخ مصر) ٣ أجزاء، بولاق ١٣٧٠هـ.
- (٢) بيبس الدوادار، ٧٢٥هـ (١٣٢٥م)، الأمير ركن الدين بيبس المنصوري: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، الجزء العاشر، مكتبة جامعة القاهرة، رقم ٢٤٠٢٨ تاريخ، تصوير شمسي.
- (٣) جوزيف نسيم جوزيف:
- (أ) العدوان الصليبي على مصر، دار النهضة، بيروت، ١٩٨١م.
- (ب) العدوان الصليبي على الشام، دار النهضة، بيروت ١٩٠٠م.
- (٤) الخزرجي، علي بن حسن (القرن الثامن الهجري)، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، (جزءان).
- (٥) ابن خلدون، ٨٠٨هـ (١٤٠٥م) عبد الرحمن بن أحمد:
- (أ) مقدمة ابن خلدون، بيروت، ١٩٠٠م.
- (ب) العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٨ أجزاء، القاهرة، ١٩٨٤م.

- (٦) رشيد الدين، فضل الله الهمداني، جامع التواريخ، تاريخ المغول، نقله إلى العربية محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطي الصياد، القاهرة، ١٩٦٠ م.
- (٧) ان شاكس، ٨٧٣ هـ (١٤٦٩ م)، فخرس الدين محمد: فوات الوفيات، بولاق، ١٢٩٩ م.
- (٨) أبو الفداء، ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م)، إسماعيل بن علي حماد الدين صاحب حماة. المختصر في أخبار البشر، ٤ أجزاء، ١٢٨٦ هـ.
- (٩) ابن الفرات المصري ٨٠٧ هـ (١٤٠٥ م)، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم: تاريخ ابن الفرات، المعروف باسم: الطريق الواضح السلوك إلى معرفة تراجم الخلفاء والملوك. تحقيق قسطنطين زريق والمستشرق ليفي دلافيدا.
- (١٠) ابن أبي الفضايل، ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م)، مفضل: النهج السديد والدر المفيد فيما بعد تاريخ ابن العميد، جزءان. حققه بلوشيه، باريس ١٩١٢ م.
- (١١) القلقشندي، ٨٢١ هـ (١٤٧١ م)، أبو العباس أحمد: صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ١٤ جزءا، القاهرة، ١٩١٣ - ١٩١٩ م.
- (١٢) عاشور، سعيد عبد الفتاح:
- (أ) الحركة الصليبية، جزءان، مكتبة الإنجلو المصرية، ١٩٦٣ م.
- (ب) قبرص والحروب الصليبية، القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٥٧ م.
- (١٣) العبادي، أحمد مختار، دكتور: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩ م.
- (١٤) عبد النعم ماجد: دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية (بدون تاريخ).
- (١٥) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٦٧ م.
- (١٦) العميني، ٨٥٥ هـ (١٤٥٢ م)، بدر الدين أبو محمد بن أحمد: عقد الجمان في تاريخ

أهل الزمان، ٢٣ جزءاً في ٦٩ مجلداً، الجزء الخاص بحوادث ٦٥٦ - ٦٧٣ هـ (مخطوطة بمكتبة دار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤).

(١٧) أبو المحاسن، ٨٧٤ هـ (١٤٩٦ م)، جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى:

(أ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٩ أجزاء، دار الكتب، ١٩٣٩ م.

(ب) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ٣ أجزاء، مخطوطة بدار الكتب برقم ١١١٣.

(١٨) المقرئ، ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) تقى الدين أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٩ م.

(١٩) يوسف دريان:

(أ) لباب البراهين الجلية عن حقيقة أمر الطائفة المارونية منذ أوائل القرن الخامس إلى أوائل القرن الثالث عشر من القرون المسيحية. (تاريخ الطبع غير معلوم).

(ب) نبذة تاريخية في أصل الطائفة المارونية واستقلالها بجبل لبنان من قديم الدهر حتى الآن. القاهرة، مطبعة الأخبار، ١٩١٦ م.

المراجع الأجنبية

1) Atiya: A.S.

a) Egypt and Aragon

b) The Crusades in the Later middle Ages (London 1983).

2) Encyclopidle of Islam

3) Encyclopidle of Religion.

4) Hauteceur wiet : Les Mosques de Calre.

5) Hitti , p.k.: The History of the Arabs, (London 1940).

6) Joinville, jean sire: de History of St. Louis tr, Jean Evans.

7) King : The Knights of Hospitallars in the Holy land (London, 1931)

8) Lane poole, st. The History of Egypt in the Middle Ages, (London 1957).

9) Rucniman, s.A History of the Crusades. (Cambridge, 1957).

10) Stevenson. W.: The Crusades in the East, (Beirut, 1968).

الهوامش

- (١) انظر حول سيرة لويس التاسع «العبدوان الصليبي على مصر» للدكتور جوزيف نسيم، دار النهضة العربية، ص ٣٣ وما بعدها.
- (٢) د. علي إبراهيم حسن، «تاريخ المماليك البحرية» ص ٢٣، ٢٤ مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٦٧م، ابن منظور «لسان العرب» كلمة (ملك).
- (٣) Encyclopida of Islam : Art Mamluk, 13, p 430
- وتعني كلمة «مملوك» ما يملك بقصد تربيته والاستعانة به كجندي أو قائد، على عكس لفظ (العبد) الذي يعني (الخادم) أو العبد الأسود) فالعبد يولد من الرقيق، بينما المملوك يولد من أبوين حرين ويباع. كما أن العبد قد يعني الأسود بينما قد يكون المملوك أبيض. انظر عبد المنعم ماجد «سلاطين دولة المماليك ورسومهم في مصر» ١/١١، مكتبة الانجلو.
- (٤) المولى والولي بمعنى واحد في كلام العرب، حيث تدل كلمة مولى على عدة معان، فالمولى هو الرب، والمالك، والسيد، والنعيم، والمعتق، والناصر، والمحب، والتابع، والجار، وابن العم، والحليف، والعقيد، والصهر، والعبد، والمعتق. ان منظور: لسان العرب ٥/ ٤٠٩، القاموس المحيط ٤/ ٢٩٤، ابن خلدون، عبد الرحمن بن أحمد ٨٠٨هـ (١٤٠٥م) مقدمة ابن خلدون ص ٩٦، بيروت ١٩٠٠م.
- (٥) حض الإسلام على تحرير الأرقاء، وجعل ذلك من أعظم الصدقات، وكفارة للظهار، والأيمان، والقتل الخطأ، وغير ذلك من الذنوب الكبيرة. قال تعالى «وما لإدراك ما العبة، فك رقة» سورة البلد، آية ١١ - ١٢.
- (٦) عاشور، سعيد عبد الفتاح، العصر المملوكي في مصر والشام، ص ٢٠٣.
- (٧) نسبة إلى بحر النيل الذي أحاط بشكائهم في جزيرة الروضة، ولكن الدكتور أحمد مختار العبادي، في كتابه «قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام» ص ٩٧ يرى أن هذه النسبة غير صحيحة، وأن أول من شك في صحتها الأستاذ محمد مصطفى زيادة في بحثه المنشور بمجلة كلية آداب القاهرة، المجلد الرابع سنة ١٩٣٦م بعنوان «بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك» وإن مما يؤيد عدم صحة هذه النسبة إلى بحر النيل، أن المؤرخين المعاصرين للصالح أيوب أمثال ابن واصل، وأبي شامة، لم يشيروا إلى بحر النيل كأصل لكلمة (بحرية)، وأن المتأخرين كالمقريزي وأبي المحاسن هم الذين أوردوا هذه التسمية. هذا بالإضافة إلى أن الفاطميين قد استعملوا هذه التسمية قبل الملك الصالح فكانوا يطلقون على قسم من جنسهم اسم (الغز البحرية). أبو

المحاسن ٨٧٤هـ (١٤٦٥م) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»، ١٣ جزءاً، القاهرة ١٩٤٣: ٩٠/٤. كما أن جد الملك الصالح وهو السلطان العادل الأول كانت له فرقة مماليك سهاها (البحرية العادلة) د. محمد زبادة، المرجع السابق. وذكر الخنزرجي، علي بن الحسن (القرن الثامن الهجري) في «العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية» جزءان: ٨٢/١، أن سلطان اليمن نور الدين عمر بن رسول ٦٤٧هـ (١٢٤٩م) كان له مماليك بحرية رغم بعد اليمن عن غير النيل.

والأغلب أن هذه التسمية جاءت من أنهم جلبوا من وراء البحار، حيث ذكر جونفيل - الذي حارب جند المماليك في حملة لويس التاسع وأسر - أنهم سمو بحرية أو رجال ما وراء البحر. (Joinville, Jean sir, de History of st. Louis. Jr. Joan Evans, P.8y)

Hauteocour et wiet: Les Mosques de Caire . pp. 46 - 47

(٩) ابن شاکر الکتبی، فخر الدین محمد بن أحمد ٨٧٣هـ (١٤٦٩م) «فوات الوفيات» بولاق ١٢٩٩هـ ١٣٤/٢.

(١٠) ابن الفرات المصري، ناصر الدین محمد بن عبد الرحیم ٨٠٧هـ (١٤٠٥م)، تراجم الخلفاء والملوك، ٩ أجزاء، من ٥٠١-٧٩٩، تحقيق قسطنطين زريق والمشرق ليفي دلافيرا.

(١١) شجر الدر، أو شجرة الدر، أول سلطنة لمصر من غير الأيوبيين، وأول ملكة مسلمة - إذا استثنينا رضية الدین سلطنة دلمی (١٢٣٦ - ١٢٤٠م) - كانت شجر الدر مملوكة أرمنية الأصل، ذكية جملة، أهداها الخليفة العباسي المستعصم إلى نجم الدین أيوب، فأنجبت منه ابناً اسمه خليل، توفي صغيراً، وأصبحت أم ولده، فأحبها ورافقته في رحلته إلى المشرق، وفي سجنه عندما به الملك الناصر داود في الكرك سنة ٦٣٧هـ. أبو لالحاسن، النجوم الزاهرة: ٩١/٦، وقد عتقها الملك الصالح وتزوجها عندما أصبح سلطاناً.

(١٢) المقرئزي، السلوك، ٣٦٧/١-٣٦٩.

(١٣) أبو الفداء، المختصر، ١٩٢/٣.

(١٤) أبو الفداء، المختصر ٢٠٨/٣، المقرئزي، الخطوط ٣٠٠-٣٠١.

(١٥) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٢٦٧/٧.

(١٦) انظر قائمة سلاطين دولة المماليك البحرية، الملحق بهذا البحث.

(١٧) سمو بالبرجية لأن غالبية سلاطينهم من المماليك الذين كانوا يقيمون في برج القلعة على جبل المقطم. وأبرزهم من بلاد الشركس (القوقاز بجوار بحر قزوين) وهم من الترك أيضاً. وقد سقطت دولتهم على يد العثمانيين، وظلت بقاياهم تشارك في حكم مصر مع العثمانيين حتى قضى عليهم محمد علي باشا. (عبد المنعم ماجد، دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر: ٢٥/١ مكتبة الأنجلو).

- (١٨) حتي، فيليب، تاريخ العرب: ص ٢٨٩
- (١٩) انظر جوزيف نسيم، العدوان الصليبي بلاد الشام، ص: ١٧٧ - ١٨٧، دار النهضة، بيروت، ١٩٨١ م
- (٢٠) العيني: عقد الجمان: ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٤٤. وكذلك عقد الجمان (مجموعة الحروب الصليبية حد ٢ قسم ١ ص ٢١٥، انظر كذلك: ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣ / ١٨٤.
- (٢١) انظر د. جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص: ١٨٢.
- (٢٢) المقرئ، السلوك: حد ١ قسم ٢ ص ٣٨١، ابن خلدون: العبر: ٥ / ٣٧٥.
- (٢٣) د. أحمد العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، ص ٢٢١، دار النهضة، بيروت، ١٩٦٩ م.
- (٢٤) د. جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص: ٢٩٠.
- (٢٥) مدينة بساحل الشام بينها وبين الرملة ٣٢ م يلا، كانت شديدة المناعة لها قلعة حصينة، وسور وباب حديد. (أبو القداء، تقويم البلدان ص: ٢٣٩).
- (٢٦) لم يبق منها اليوم سوى آثار قليلة، ومنها بعض المدافن بسفح جبل الكرمل، وحيضا، الموجودة حاليا القرن ١٨، وتقع في شمال حيفا القديمة لكيلو مترين (الكرمل: حيفا ص ٦٩ - ٧١).
- (٢٧) تقع بافا على مسافة ٦ أميال شمال غرب مدينة الرملة، وهي ميناء ترسو فيه السفن الواردة إلى فلسطين والمنطقة منها. (أبو القداء، تقويم البلدان ص ٢٣٩) (الفلسطيني: صبح الأعشى: ٤ / ١٠٠ قال عنها البشاري المقدسي:
- «خزانة فلسطين، وفرصة الرملة، عليها حصن منيع بأبواب عديدة، وباب البحر كله حديد» (أحسن التقاسيم ص: ١٧٤).
- (٢٨) «مدينة بساحل البحر الرومي ذات حصن حصين» (الفلسطيني، صبح الأعشى ٤ / ١١١)
- (٢٩) جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على الشام، ص: ٢٩٩.
- (٣٠) كان الصليبيون يطلقون هذا الاسم على الجماعات الشامية النصرانية، من إغريق، ونساطرة، وأرمن، وموارنة، وغيرهم. (جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على الشام ص ٣١٢). وانظر:
- (٣١) ينسبون إلى القديس مارون الذي ظهر في جهات أفامية في أواخر القرن الرابع الميلادي، وأقيم بعد موته دير في أوائل الخامس على ضفاف العاصي قرب أفامية. وقد تواجد أكثر الموارنة في بلاد حصن وجبل لبنان، وكانوا متمسكين بمذهب الطبيعة المقر في مجمع خلقدونية عام ٤٥١ م مما جعلهم مغربين إلى السلاطين بعكس الأقباط والأرثوذكس. (يوسف دريان: نبذة تاريخية أصل الطائفة المارونية، القاهرة، ١٩١٦، ص: ٤٢، ٤٣، ٤٥).
- (٣٢) يوسف دريان، لباب البراهين الجلية عن حقيقة الطائفة المارونية، القاهرة، ١٩١٦، ص: ٥٩ - ٦٠.

- (٣٣) يوسف دربان، أصل الطائفة المارونية، ص: ٥٦ .
- (٣٤) Joinville (ed wailly) p.334 - 336.
- (٣٥) أحمد العباد، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩م، ص: ٢٢٢ .
- (٣٦) مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ص: ١٩٢، المقرئ، السلوك: ١/ ٥٨٤ - ٦٠٠ .
- (٣٧) بيبس الدوادار، زبدة الفكر: ٩/ ٢٦٢ .
- Lane -poole, A History of Egypt in the Middle Ages (London 1945) . p. 466.
- (٣٨) المقرئ، السلوك: ١/ ٤٦٥ .
- (٣٩) المقرئ: السلوك: ١/ ٤٨٥-٤٨٦ .
- (٤٠) المقرئ: السلوك، حوادث سنة: ٦٦١، ٦٦٢ .
- (٤١) ارسون مدينة ساحلية عظيم الروم، بما قلعة وعليها سور، كانت في زمن أبي الفداء خراباً (أبو الفداء: تقويم البلدان، ص: ٢٣٩) .
- (٤٢) المقرئ: السلوك: ١/ ٥٢٩ ولا يعتبر هذا غدرًا منه لأن هؤلاء القرصان جبلوا على الخيانة والغدر طالما غدروا بالمسلمين .
- (٤٣) قيل إنها فتحت صلحا، ثم قتل بيبس من أهلها وخرب قلعتها عبارة تدل على زهوة النصر جاء فيها: «عاهد الدين الذي حول الكنائس إلى مساجد، ووزن التوافي أصوات المؤذنين، وقرأة الإنجيل إلى ترتيل القرآن» . (عل إبراهيم حسن: ص ١٨٠) .
- (٤٤) حصون تحيط بمدينة باتياس التي كان بها قلعة الصبية، ومن هذه المدن والحصون شقيف لرون وشقيف تيرون، والجليل وصفد والناصره وصفورية . (أبو الفداء: تقويم البلدان: ٣٤٥) .
- (٤٥) الرملة مدينة بفلسطين بناها سليمان بن عبد الملك، بينها وبين القدس يوم واحد . القلقشندي: صبح الأعشى: ٩٩/ ٤ .
- العيني، يدر الدين أبو محمد بن أحمد ٨٥٥هـ (١٤٥٢م): عقد الجبلان في تاريخ أهل الزمان، الجزء الخامس بحدوث سنة ٦٥٦ - ٦٧٣ . مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم: ١٥٨٤ .
- المقرئ، السلوك: ١/ ٥٥٠، وذكر ص: ٥٤٤ - ٥٤٧ إن الاستيلاء على يافا كان سنة ٦٦٦هـ .
- (٤٦) القلقشندي: صبح الأعشى: ٤/ ٤٤-٥١ . أبو المحاسن: النجوم: ٧/ ١٥٠ .
- (٤٧) القلقشندي، نفسه: ٣٩/ ٤ .
- (٤٨) يذكر رنسيان
- Runciman, A History of the Crusades. cambridge 1957) p.344 - 343
- أن بيروت سقطت بيد الأشرف خليل عام ١٢٩١م (٦٩٠هـ)، بينما يذكر المقرئ أنها سقطت

- بيد الناصر فلاوون سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) (المقريزي: السلوك: ١/٦٤٦-٦٤٧)
- (٤٩) سميت أرمينية الصخرى غميرا عن أرمينية القديمة الممتدة جنوب الفوقاز والبحر الأسود، أي ما بين بلاد فارس والعراق شرقا وبلاد الروم غربا، وتقع أرمينيا الصخرى في جنوب الأناضول وقبليقية من الرها شرقا إلى أطلن غربا وعاصمتها سبس. (أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية ص: ٣٣٤) وهي اليوم مقسمة إلى منطقتين، إحداهما مع روسيا باسم جمهورية أرمينيا الاشتراكية والأخرى تركية مكونة من عدة ولايات أهمها ولاية أرضروم. (سعيد عاشور: الحركة الصليبية: ١١٤٨/٢).
- (٥٠) سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية: ١١٤٧/٢، القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٥٧ م.
- (٥١) أبو المحاسن، النجوم: ١٤/٧، المقريزي، السلوك: ١/٥٥٢.
- (٥٢) المقريزي: السلوك: ٣/٥٥٢.
- (٥٣) Stevenson: The Crusades. p. 339.
- (٥٤) المقريزي: السلوك: ١/٥٤٤-٥٤٧.
- (٥٥) قبل إنه قتل من أهلها مائة ألف، ومن جنود قلعها ثمانية آلاف.
- Lane-poole, Egypt in the middle Ages p. 497.
- (٥٦) المقريزي، السلوك: ١/٥٦٨.
- Runciman, Op. Cit. p 344 - 345
- Lane-poole, The History of Egypt in the middle Ages p. 497.
- (٥٧) وتبين استهانة بيرس بالصليبيين من الرسالة التي كتبها الأمير أنطاكيا بوهمند السادس الذي كان لدى سقوط مدينته بقم في إمارة الثانية طرابلس (أبو المحاسن، النجوم: ١٤٧/٧).
- (٥٨) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص: ٤٧-٤٨.
- (٥٩) العمري: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٦٩ هـ.
- (٦٠) السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص: ٢٦٩.
- (٦١) أصبح ملك إنجلترا فيها بعد، كان معه حوالي ١٠٠٠ محارب، جاء البلاد بناء على اتفاق مع ألبانخان المغولي على غزو مصر والشام، ولكن انتشار ألبان بمحاربة مغول التركستان حال دون ذلك، قصاد إدوارد بعد أن طعنه أحدهم بسكين، ويعد أن عقد هدنة مع بيرس مدتها عشر سنوات (سعيد عاشور، الحروب الصليبية: ص ١١٥٩).
- (٦٢) أثناء المفاوضات اندس بيرس بين أعضاء وفده إلى بوهمند كخادم ليتمكن من الاطلاع على حصون طرابلس (المقريزي: السلوك: ١/٥٩٤).
- (٦٣) السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص: ٢٦٩.
- (٦٤) الحشاشون والحشيشية، يقصد بهم القداوي لاشتغالهم بتناول المخدرات المعروفة بالحشيش، وقبل

إنه ربما أطلق عليهم هذا الاسم لكثرة اغتيالهم الأمراء من الحش بمعنى القطع وبذلك تكون التسمية بعيدة عن موضوع الحشيش المخدر .

- Encyclopidia of Religion, Art Assansins

وبروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية : ١٣٨/٢ .

(٦٥) أبو الفداء ، المختصر ، حوادث سنة : ٦٧٩ .

(٦٦) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة : ٢٩٩/٧ .

- King: The Knights Hospitalers in the Holy land. (London 1931) p. 484.

(٦٨) نسبة إلى الظاهر بيبرس .

(٦٩) مفضل بن أبي الفضائل ، النهج السديد : ٣٢٢/٢ . وذكر ابن إياس ٩٣٠هـ (١٥٢٣م) ، أبو

البركات محمد بن أحمد ، بذائع الزهور في وقائع الدهور ، ثلاثة أجزاء ، بولاق ، ١٣١٢هـ ، أن هذه الحادثة من قبل المماليك الظاهرية كانت سببا لاقدام الناصر قلاوون على إنشاء المماليك البرجية .

(٧٠) أبو المحاسن ، النجوم : ٢٩٩/٧ .

(٧١) المقرئ ، السلوك : ٦٧٦/١ .

(٧٢) النويري ، نهاية الأرب : ج ٢٩ ورقة ٢٧٠ .

(٧٣) رشيد الدين الحمذاني (١٣١٨هـ) ، جامع التواريخ : ٨٣/٢ .

(٧٤) المرقب بالفتح ثم السكون وقاف وباء بلد وقلعة حصينة على ساحل بحر الشام . معجم البلدان .

قبل أنشيء الحصن على يد المسلمين سنة ٤٥٤هـ (١٠٦٣م) .

(٧٥) المقرئ ، السلوك : ٦٢٨/١ .

(٧٦) أبو المحاسن ، النجوم : ٣٢١-٣٢٠/٧ .

(٧٧) المقرئ ، السلوك : ٦٤٦-٦٤٧/١ .

(٧٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية : ١١٧٧/٢ .

(٧٩) المقرئ ، السلوك : ٧٥٤/١ - 482 - 481 Op. Cit. p. 481 - Lane- poole

(٨٠) علي إبراهيم ، ص : ٦١

(٨١) المقرئ ، السلوك : ٧٩٢-٧٩٣/١ .

(٨٢) المقرئ ، السلوك : ٧٦٢/١ .

(٨٣) - Lane - poole : Op. Cit . p. 489

(٨٤) أبو المحاسن ، النجوم : ٧-٦/٨ .

(٨٥) المقرئ ، السلوك : ٧٦٥/١ .

(٨٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية . ١١٨٣/٢ ، ١١٨٤ .

- (٨٧) جزيرة على ساحل بلاد الشام ، فتحها المسلمون سنة ٥٤ هـ (انظر لفظ ارواد في معجم البلدان) .
- (٨٨) أبو القداء ، المختصر : ٤٣ / ٣ .
- (٨٩) Atia: Egypt and Aragon . pp. 54 - 55.
- (٩٠) Ibid.
- (٩١) Atiya: The Crusades in the later middle Ages. (London, 1938). p. 374.
- (٩٢) --Lane-poole, Egypt in the middle Ages p. 801.
- (٩٣) انظر إبراهيم حسن : ١٨٥ .
- (٩٤) علي إبراهيم : ١٨٤ - ١٨٥ .
- (٩٥) المقريزي ، السلوك : ١٦٣ / ٢ - ١٦٤ و ١٥٩ .
- (٩٦) هو نفسه صاحب اسطنبول إمبراطور الدولة البيزنطية .
- (٩٧) أبو المحاسن ، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، ٣ أجزاء ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ١١١٣ : ٢٥٢ / ٣ .

